في الاتحاد والائتلاف

﴿ إيقاظ الفتن في البلاد العثمانية ﴾

مناجاة ودعاء

اللهم الطف بهذه الامة وبدولتها واحفظها من فتن المفسدين في الارض ، اللهم اقطع عنها أيديهم وكف عنها كيد اقلامهم ، اللهم إنك تعلم أن المخلصين قد بذلوا جهد طاقتهم في النصح والاصلاح ذات البين وسعوا الى ذلك من كل طريق يرونه نافعا ، اللهم إنا لا نملك بعد حسن القول والسعي الا الاستعانة بك ودعاءك فلا يخيبن مكرم السعي ، ما نرجو من لطفك وعنايتك ، اللهم انا لا نخشى عليك كيد الذين يفسدون في الارض ويحبون المصلحين بحب الافساد ، ويقصدون العداوة والبغضاء بين عبادك ويسيرون بعملهم السيء من يعملون الصالحات بالتأليف بين القلوب وجمع الكلمة على الخير ، اللهم إنك تعلم ان من هؤلاء من يخرق سهام كيده ومكره للأمة العربية التي شرفتها وفضلتها بخاتم أنبيائك ورسلك وخير كتبك المنزلة لهداية خلقك وخاطبت سلفها الصالح بقولك الحق « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولكل من قبح ذلك السلف من الخيرية بقدر اتباعه لهم ، اللهم انهم حسدوها أن جعلت كتابها عربيا مبينا فهم يريدون ترجمته ليكون عرضة لتحريف المحرفين ، واختلاف المختلفين ، اللهم إنك أنزلته لتجمعهم عليه ، وهم يحاولون ترجمته لكل شعب من المسلمين ليتفرقوا فيه ، اللهم إنه حبلك المتين الذي امرتنا ان نعتصم به ولا نتفرق عنه بقولك (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وهو بيانك الذي قلت فيه (٣ : ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) اللهم انهم يزعمون ان رسالتك

خاتم رسلك ما تمت الى الآن ، وانها لا تتم الا بترجمة القرآن ، وانت قلت وقولك الحق (٥ : ٣ اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) الهم انهم يزعمون أن دينك لم يتم بالحجة والبرهان ، وان نبيك (ص) كان يكره الناس عليه بالسيف والسنان ، وانت قلت وقولك الحق (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين ـ ١٠ : ٩٩ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ؟ ؟

المقصد

بينا في أول مقال كتبناه عن الانقلاب العثماني واستبدال الحكم النيابي بالحكم الشخصي المطلق انه يخشى في هذا الطور الجديد الذي دخل العثمانيون فيه من عاقبة اختلافهم في الاجناس واللغات والاديان وجددنا في التأليف بينهم سعيا جديدا غير ما كنا نسعى اليه سرا في جمعيتنا (الشورى العثمانية) المؤلفة من جميع العناصر العثمانية . ظهرنا بالتأليف الجهري فخطبنا في كنيسة الارمن في القاهرة خطبة جعلنا الاخلاص موثرة في نفوس حاضريها من العثمانيين المختلفين في الاديان والمذاهب حتى قال لنا فارس افندي نمر محرر المقطم يومئذ ان هذه الخطبة وحدها تضاهي عملك في التأليف والوفاق مدة عشر سنين . ثم سعينا في البلاد السورية وخطبنا مرات عديدة في ذلك وتكلمنا وكتبنا كثيرا ورأينا لعملنا وعمل غيرنا تأثيرا حسنا أعان عليه في تلك البلاد ذكاء الأهالي وأخلاقهم الحسنة

بينا نحن نرى الولايات السورية أهدأ الولايات العثمانية وأشدها اقبالا بالحكومة الدستورية ونرى من البلاد العربية كاليمن والحجاز وقد هدأ ما كان يقع فيها من الكفاح والغارات فصارت اشد خضوعا للدولة من ولايتها الاوربية التي هي مهد قوتها وعظمتها فالعاصمة نفسها مكومة بديوان الحرب العرفي والدماء تخضب ولايات الارنؤط ، ومقدونية تتخض بما تتخض به ، ـ بينا نحن على ذلك واذا بغراب ينعب من أول هذه السنة الهجرية بصوت عربي غربي غريب يخشى شره ولا يرجى خيره

صاح الغرور يغر العرب ويغريهم باخوتهم الترك : يقول ان العرب هم الحاكمون

والترك هم الخادمون ، ويطري الامة العربية بالشعريات التي تحفز النفوس الى طلب مالا يطلب ونيل مالا ينال ، ولم يفهم احد من العرب معنى كونهم هم الحاكمين والترك هم الخادمين الا ان الكاتب يفهمهم ان الامر يجب أن يكون كذلك وانه عليهم أن يطلبوا هذا الواجب ، لأن الأمر في الواقع ليس كذلك ، ولكن هذا التحريض لم يؤثر في اغراء العرب لا لأن قائله منهم عندهم يبغضه إياهم بل كان له دافع آخر من نفوسهم وهو اعتقادهم ان الترك اخونهم في الدين وحكامهم الذين رجعوا باعلان الدستور الى هدي الاسلام بمشاركتهم اياهم في الحكم فلا خادم في العناصر ولا مخدوم ، وما القول بذلك الا من نزغات الشياطين ووساوس المفسدين

تهافت قول هذا الناعق وتناقض فهو تارة يطري العرب ويغلو في مدحهم ، وطورا يعرض او يصرح بالطعن في جميع الظاهرين منهم كأمير مكة المكرمة والمبعوثين وطلاب المناصب والخدمة في الدولة والكتاب الخادمين للدولة من طريق خدمة العرب اذ يكتبون بالعربية — وتارة يدعي انه خادم الاسلام وناشر دعوته ومبقي اوهائه بارتقاء العرب ثم يدعو الى ترجمة القرآن بلغة المسلمين ليستغنوا عن القرآن المنزل من عند الله تعالى ، ويزعم ان الاسلام قام بالاكراه كما أشرنا الى ذلك في في المناجاة التمهيدية وهذا أشد مطعن يسدده الاوربيون الى قلب الاسلام ويذكر سيدنا عيسى (عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا وسائر النبيين) بلقب رجل يهودي وبعد هذا كله يخص بطعنه الصريح من قضى زهرة عمره في خدمة الاسلام والدفاع عنه

هنالك ما هو شر من ذلك وهو السعي في مقاومة المشروع الاعظم لخدمة الاسلام وهو إنشاء مدرسة دار العلم والارشاد التي يتربى فيها الوعاظ والمرشدون ليقوموا بما أوجبه الله تعالى من فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العامة عقائد الاسلام وآدابه وأحكامه مع التنبيه الى مصالح الدنيا كترقية الزراعة وكل ما ينمي ثروة الامة ويعزز الدولة . فقد حدثني الثقة ان شيطان الفساد بعد ان مدح المشروع قبل ان يقرر عاد الى التفبير منه بعد ان علم بأنه تم او كاد فهو ينفر كل من يظن انه يساعده على هذه المقاومة بما يرى انه يصيب موقع التأثير من وجدانه والاقناع من فكره : يقول للملاحدة ان تأسيس مدرسة إسلامية عربية في الآستانة

يجعل للدين قوة معنوية «جزوية» تقضي على حريتكم وتذهب بجميع مقاصدكم!!! ويقول للمتعصبين مثله للجنسية ان هذه المدرسة تقوي اللغة العربية وتحييها فتزاحم التركية في عرشها الاعلى!!! ويقول للمتدينين الجامدين إن هذه المدرسة تحيي علوم التفسير والحديث والفلسفة فتفسد عليكم التعليم المقرر في مذهب الامام الاعظم!! وينفر بعضهم عنها بالطعن في شخص الداعي إلى تأسيسها وكأنه لا يدري اننا نطالب ان تؤسسها جمعية من الفضلاء والعلماء وان يكون التعليم فيها بما يرضونه ويختارونه ويكون أيضا بمراقبتهم الدائمة ، فهل يضر المدرسة مع هذا ان يصدق الكذوب ويكون الطعن في شخص الذي نبه الى هذا العمل النافع صحيحا ؟

إذا كان خذلان مفسدي المسلمين لمصلحيهم قد وصل الى هذه الغاية فهل يستبعد بعد ذلك شيء مما ذكرنا عن غراب التفريق والتنكيث ؟! ماذا كر مشروع (العلم والارشاد) لعالم ديني أو غير ديني ولا عاقل عربي أو أعجمي مسلم أو غير مسلم مستمسك بدينه أو متهاون فيه الا وأعجب به واعترف بفائدته ونفعه وبأنه لا يحل محله سواه في فائدته ومنفعته حتى ان بعض المفسدين قال انا نحب ان يتعلم الاسلام على وجهه فان المسلمين يكونون بذلك أقرب الى الترقي الذي يصدهم عنه المتعصبون باسم الدين ، كما يكونون أبعد عن إيذاء المخالفين ، وأما سائر الوساوس فظاهرة البطلان

بلقي خبر هذه السعاية فكان اول شيء سبق الى ذهني عند سماعه فاتحة كلام نشر في جريدة العروة الوثقى وهو على ما أتذكر

« أسف يصهر الجسم وحسرة تذيب الاكباد على قيل من أمة ، أو شخص منها ذي همة ، يستخبر الله في عمل ينقذ أمته من ضعة ، أو يعود عليها بمنفعة ، ثم يعرض له في اثناء عمله من بنجم كقرن المنزل يقطع عين العامل و يعرقل عليه عمله » الخ

وتلا هذه الذكرى في خاطري ما كنت سمعته من الاستاذ الامام محرر تلك الجريدة (العروة الوثقى) في هذا المعنى رحمه الله تعالى: والله اني ما تشبثت بخدمة للاسلام أو المسلمين وقاومني فيها أحد من غير المسلمين ، ما قاومني في شيء من ذلك انكليزي ولا فرنسي ولا سوري مسيحي وإنما لقيت مقاومة كثيرة من المسلمين أنفسهم في خدمة الاسلام والمسلمين !!

نعود من هذا الاستطراد الى أصل الموضوع وهو إيقاظ الفتن في البلاد العثمانية فنقول ان ناعق الفتنة لم يكتف بتغرير العرب واغرائهم باخوتهم الترك بل عمد الى إلقاء الشقاق بين المسلمين والنصارى منهم فنفخ روح العصبية الدينية في الفريقين فجرح كل واحد في دينه جرحا داميا ، وأغرى كلا منهما بالآخر ومزق نسيج الوحدة الجنسية بينهما بايهامه من يقرأ كلامه من النصارى انه يهكه بدينهم يتكلم باسم الاسلام ويرضي المسلمين وبانكاره ان يكون النصراني مريا مع علمه ان النصرانية كانت في العرب قبل البعثة المحمدية كاليهودية . ويرى القارئ في فتاوى هذا الجزء سؤالا عن حديث « ان الله سيبعث هذا الدين بنصارى من ربيعة » أي يحفظه ويؤيده . وما رأيت ولا رأى القارئون اسخف من اختراع هذه العلة للتفريق أي جعل العربية والنصرانية ضدين لا يجتمعان ، وناهيك بسخافة يقتضيها البيان »

اطلعنا على ما كتبه في ذلك موقظ الفتن فبادرنا الى مقابلة الضد بضده ، ومقاومة الشر بالخير ، والقذف بالحق على الباطل ، فكتبنا مقالة في تذكير أهل سورية وبيروت بما فيه خيرهم وخير دولتهم من الوفاق والوئام ، ونشرناها هنا في جريدة المضارة وسيراها القراء في المنار السادس ، ونرجو ان تكون دامغة لباطل موقظ الفتن ، لانها جمعت اصعفة الشبهة التي اخترعها خياله ، وناهضته في بيان ان مسلمي العرب يتبرءون من كل وسوسة تفرق بينهم وبين اخوتهم في الوطن والجنس واللغة والمصلحة والتابعية العثمانية كما يتبرأ الخير من الشر ، والنفع من الضر ، وان موقظ الفتنة لم يترجم عن ضمائرهم ولا قال ماقال بالنيابة عنهم وهو ليس منهم وان كان يهمنا أن وجد منهم من يترجم عنه ويكتب له ما يريد باسمه واسم نفسه ، وهو لم يقل ماقال ايضا باسم الاسلام وقد علموا انه جنى على الاسلام اكثر مما جنى على النصرانية ، وينبغي ان يبرءوا الحكومة الدستورية من الاقرار والامالة على هذا الفساد وان شاع انها تساعد هذا المفسد على عمله فان صح ما يقال من مساعدتها اياه فلا بد ان تكون المساعدة لوهمه انه يعضد الاصلاح ودعواه ، « واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »

كل من اطلع على ما كتبه المفسدون يعرف من يقصد منهم بهذا الكلام اذ

لا ينطبق على كثير من المفسدين ولو كان كل القائمين كمن ذكرنا لفسدت الارض وهلك الناس ، ومن لم يطلع عليه ولا وصلت اليه وسوسته فخير له ان لا يعرفه ، على انه اذا ظل سادرا في إفساده، سادلا اذيال غروره وعناده ، فسنتقل الكلام من حيز الابهام ونأتي بالشواهد والنصوص من كلامه المؤيدة لما قلنا تحذيرا من كل ما يكتبه وما يقوله ، ولعل ديوان الحرب العرفي يكفينا ذلك بمنعه من أمثال هذه الفتن قبل ان يظهر اثرها الردي. فان الرجل و إن كان متهما بسوء النية عند جميع العرب يخشى ان يؤثر كلامه في بعضهم أو يكون سببا لسوء ظنهم بحكومتهم الدستورية وفقها الله لكل اصلاح وجعل أيامها الدائمة ان شاء الله تعالى أيام خير وفلاح

المسلمون في روسية

﴿ وسياسة الحكومة ﴾ (*)

أيها السادة : سأبحث لكم عن سياسة الحكومة مع المسلمين . لست احد حاجة للبحث عن سياسة الحكومة العامة بعد خطابات ما قلاقوف وغيره من المبعوثين . واني اعلم ان السكوت والكلام سواء لأن الحكومة والنظار لا يعيرون اسماعهم لنداء الامة ولا سيما للمسلمين ولكني اراني مضطرا الى الكلام خشية ان يحمل سكوت المسلمين على رضاهم بحالة الفوضى الضاربة اطنابها في كل مكان

أيها السادة : اني غير ذاكر لكم الحوادث المؤلمة النازلة بالمسلمين ولا سيما اقفال المدارس وطرد المعلمين وائمة الدين واحدة واحدة ولكني سأبحث عن سلوك الحكومة هذه السبيل . أيها السادة : ان المسلمين متضررون وواقعون تحت حيف الحالة الحاضرة والاختلال في روسية وان مسالمتهم وضعفهم وعلمهم كل ذلك جعلهم عرضة لمصائب ورزايا اعظم وأكبر (هرج ومرج في المجلس)

---

*) خطبة لصدر الدين الندي مقصودوف القاها على اعضاء مجلس الدوما بروسية منقولة من مجموعة مذاكرات المجلس وقد نشرت في جريدة ترجمان التترية التي تصدر بباغجه سراي ونحن ننشرها مترجمة بالعربية

الرئيس : ارجو التزام السكوت والسكون

مقصودوف : ان مصيبة المسلمين بالمبشرين هي أعظم ماينغص حياتهم وقد تولى الدهشة رفقاءنا اعضاء المجلس لهذه الشكوى ويقولون كيف تستاؤن من بضع مئات من الرهبان والقسوس وهم لا يرغمونكم بالقوة على قبول دعوتهم وانتحال دينهم بل ينشرونها بالوعظ والارشاد ولكن لو اقتصر الامر على ذلك لما تضجرنا ولا تذمرنا ولكنا نتضجر ونتأفف لا لدعوة بضع مئين من الرهبان والقسوس ولكن لانهم يرمون الى غاية سياسية من وراء ذلك . فهم لا يكتفون بالدعوة الدينية بل يبتغون من وراء ذلك صبغنا بالجنسية الروسية . فنحن لانشكو من وعظهم وارشادهم ولكن من مآرب الحكومة باتخاذهم آلة لها لتنفيذ اغراضها منا . لايخفى عليكم جميعا ان الحكومة في سياستها للمسلمين منذ نحو عشرين او ثلاثين سنة كانت على خطة « ابو بيدانوسجف » وكما كان هذا واعظا كان ايلمنسكي مبشرا . فعملا بأفكار هؤلاء أقفلت مدارسنا وضيق على ظهور صحافتنا ثم املنا عقب اعلان المساواة الدينية والمدنية في القرار العالي بأن ننجو من وطأة الرهبان واغراضهم الحكومة بنا ولكن خاب منا هذا الامل لان الحكومة لاتزال تصغي وتعمل بما يمليه عليها الرهبان . وما تريد أن تعلمه من أحوال المسلمين ترجع فيه الى الرهبان . ومما يجدر بالتأمل في مثل هذه الامور التقرير الذي رفعه المسيو « الكسي » ناظر مدرسة الرهبان العليا في قزان الى نظارة الخارجية ولو وقف الامر عند هذا الحد لاضربت عن ذكره ولكن دائرة الاديان الاجنبية من نظارة الداخلية تهتم به اهتماما عظيما ومما يستدعي النظر انه قد ألفت جمعية غايتها الوقوف على حركة المسلمين والحيلولة بينهم وبين آمالهم الملية .

واليكم فكر الناظر « الكسي » وملاحظة « ان مسلمي روسية منهجون سبيل الاتحاد الاسلامي وهم يؤسسون المدارس والجرائد والمجلات ويقبلون على التعليم وبالاختصار فهم داثبون وراء استنارة أفكارهم وترقية مداركهم وغاية ذلك الاتحاد الاسلامي » ولا أصل على ما أعلم لما يذكره ذلك الراهب من اقتباس فكرة الجامعة الاسلامية بل ان استنارة الافكار والسعي وراء الترقي لاعلاقة له بذلك كما لايخفى ثم ان الاسلام في نظر المسيو « الكسي » عبارة عن الجهاد وسفك الدماء ويزعم ان

النابغة الحديثة تستحسن هذا الامر فاعلموا ايها السادة ان حكمة الاسلام وسيرته تنقضان هذا الزعم وانما غاية الاسلام الترقي والمدنية والتأريخ شاهد على ماقامت به بغداد والاندلس من رفع منار العلم وما يتبعه المسلمون ليس الاتحاد الاسلامي وانما الترقي والمدنية واصلاح حالتهم الاجتماعية فان كان هذا مما لا يرضى عنه الراهب فذاك أمر آخر .

ثم اذا كان المسلمون ينشئون الجمعيات الخيرية فأي دخل لهذا بالجامعة الاسلامية؟ ان كل من يظن ان هذا الراهب الذي قدم تقريره لنظارة الداخلية وقرأ على احوالنا فهو مخطئ . لانه يجهل لغتنا وكل ما كتبه عنا مترجم مما كتب بالفرنسية . ونظارة الداخلية تبني سياستها نحونا على امثال تلك الكتابات وهي آخذة في رضم حملة جديدة نحو المسلمين وبها تريد تفريق الدين عن القومية فهي لا تهاجم دينهم الاسلامي بل هيئتهم القومية . أيها السادة : ان الدين والقومية واحد في المسلمين ولا يمكن تفريق احدهما عن الآخر ولم يفترقا منذ عصور وفي موقفي هذا قد أعلنا وأعلن رفقاؤنا مرارا وتكرارا أن مسلمي روسية انما هم شعب مسلم اي انهم ليسوا روسيين مسلمين فهم أمة يجدر بها ان تعيش كأمة وقد قلت ذلك ولا أزال أعيده حتى يلجم لساني ويكم فمي !

ونحافظ على قوميتنا محافظة لا نخرج بها عن دائرة الاخلاص لدولتنا فنحافظ على لغتنا القومية ونتأدب على ترقية شأنها ورفع آدابها شأن كل الامم واني اصرح للحكومة بأن كل ما يضعونه في سبيلنا من العقبات والموانع وما يعدونه من التدابير سيكون عقيما . لاننا نعد المعارضة لقوميتنا تصدا لديننا وعلى ذلك فلا الحكومة ولا دائرة المذاهب الاجنبية تقدر أن تفصل ديننا عن قوميتنا وان تضعف احدهما وتضمد الثاني . فنحن سنعيش أولا كمسلمين وثانيا كشعب بمقومات خاصة في روسية واني واثق اننا سنقاوم التدابير الجديدة التي تعدها دائرة المذاهب الاجنبية ضدنا بنفس الروح التي أظهرناها في مقاومة « ايوان غروزني » الذي حاول تنصيرنا بالسيف . ايها السادة : اني اختم كلامي بأن أعلن بأننا نحن مسلمي روسية سنعيش كشعب حر في روسية الحرة . (تصفيق في الجناح الايسر)

تعصب اوربا الديني

(الزام النصارى والجبر لمسلمي بلادهم باتباعهم في أحكام الزواج والطلاق)

نشرنا في المجلد الماضي (ص ٤٣٨ و ٤٩٩ و ٨٥٦) وفي غيره نبذا ومقالات بينا فيها ان الغلو في التعصب الديني منبعه أوربا ونحن في كل آن نرى الآيات والشواهد على ذلك من غير تتبع ولا استقراء . من ذلك ما رأيناه في هذه الايام في جريدة (صداي ملت) التي يصدرها بعض روم الاستانة باللغة العثمانية هنا (الآستانة)

وماذا رأينا فيها ؟ رأينا عجبا ! رأينا ان الحكومة قررت أن دين المسلمين لا يتفق مع مدنيتهم في احكام الزواج والطلاق لانه يبيح تعدد الزوجات فيجب الزام المسلمين واكراههم على اتباع حكام الدولة في ذلك وعدم السماح لهم بجعل ذلك على حسب شريعتهم والرجوع الى حكامهم الشرعية التي كانوا يحكمون فيها بما يتعلق بالامور الشخصية !! ولا يعد ان يمنعوهم بعد زمن قريب أو بعيد من الحج لان فيه مشقة أو تعرضا للمرض وهم لشدة حبهم للمسلمين يحولون بينهم وبين ما يؤذيهم !! ومن الصوم لانه مانع من حرية التغذي الذي هو منتهى الحظ من هذه المدنية !! ومن الصلاة لان فيها اجتماعا على غير ما تحب الدولة العادلة !!

لو فعلت هذه الفعلة التي فعلتها النصارى الحكومة العثمانية أو حكومة مراكش أو الافغان لقامت قيامة أوربا وأمريكا والعالم المسيحي كله حتى التابعين للحكومة الاسلامية التي تفعل ذلك ولتجاوبت اصداؤهم بالصياح والشكوى من تعصب المسلمين والتحريض على ابادتهم من الارض فاعتبروا ايها المنصفون !

(اعتصاب الزيتونيين) اعتصب طلاب جامع الزيتونة بتونس عن تلقي الدروس طالبين تغيير الحال بما ينجح الاعمال وينفع في الحاضر والمآل وبعد ان كادت تخذلهم السياسة نصرهم الاتحاد فاجيبوا الى معظم ما طلبوا وقد كنا كتبنا مقالة نرحب فيها بهذه النهضة فلم يتسع لها هذا الجزء

(الانكليز في بلاد العرب) كتبت التيمس مقالة فيها تلويح وتصريح عن تصريح بما توجهت اليه عزائم الانكليز من العمل في بلاد العرب فعسى ان تستيقظ الدولة وتصيخ الى هذا الصوت لا الى صوت ذلك الجاسوس المفرق ولعلنا ننقل المقالة في المنار السادس ونقفي عليها بما يعن لنا من النصيحة

الفصل الحادي والعشرون (*)

(الدليل النقلي)

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد ألفته طباعهم عظيم الالفة. وربما كان من سنخ غرائزهم ، ومن مادة تصورهم ، اذ رأيناه عريقا في موافقة الاجيال ، والتنقل في الاشكال ، وموغلا في الرسوخ والاستقرار ، والدوام والاستمرار ، لا يزحزحهم شيء عنه ، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء نفع البشر كثيرا ، واضر بهم كثيرا ، فاما نفعه فلان الاكبر سنا ، والاكثر فهما ، والاشد قوة ، والاغزر تجربة ، يحملون المقتدين بهم يهتدون حيث انتهوا هم ، ويهدون لهم ما لا يستطيعون أن يهدوا لانفسهم ، ولو بقي الطفل والغبي والضعيف والفرخالين من طبيعة الاقتداء لراحت اكثر التجارب والاختراعات والتفكرات والاعمال العظيمة سدى ، ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات ، ولا كثرت البدائع ، ولا ارتقى التمدن ، ولا نمى العمران ، ولا عما النظام . وأما اضراره بهم فلانه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين ، ووقف أحيانا بأقوام مع ماسن لهم اسلافهم وقفة الصخور ، وجعلهم يحرمون مما يأتي على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ما عرفوا من قبل ، وان اصبح ما عرفوه منكرا لدى أهل زمانهم أجمعين

البحث عن نفعه واضراره ، ووضع الموازين للدرجات فيه لاقرابة

(*) تابع لما نشر في (ص ٢٣٩ م ١٣) من سيرة السيدة خديجة بقلم السيد عبد الحميد الزهراوي

بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذ الناس بعض كلام الآخرين من جملة الادلة هو الذي حملنا أن نقدم هذه الكلمات في وصف عراقته وبيان أن بعضه نافع كما وقع للسيدة « خديجة »

* * *

كان للسيدة « خديجة » ابن عم قد شبع من الاعوام ، وارتوى من حديث الايام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ودعي بدين ابن مريم (عليه السلام) دينا وهو « ورقة بن نوفل »

هذا الشيخ الجليل كان جديرا أن يكون اماما لخديجة تتخذ قوله حجة وهديه مقتصا لان هناك وجوها كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور وانه لا يصدر عنه الا النصح لها . فهو بالدرجة الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام ابيها ، فلو أن ورقة فحاش خادع لما كان منه الغش والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدين ذلك الانسان المملوء قدسا الذي كان اكبر همه حث الناس على التحاب ونفع بعضهم لبعض ، ونهيهم عن التشاحن وايذاء بعضهم لبعض . وهو مع قرابته وسمو التعاليم التي تزكت بها نفسه كان في نظر خديجة سامي الهمة جدا

ذلك ما حملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر وترجع في هذا الامر الى علمه وأخذت معها بعلها ليقص هو نفسه على سمعه ما رأى

كان ورقة بحسب ما قرأ وعرف مصدقا بأن ليس هذا الهيكل البشري الامظهرا لشيء يحل فيه هذه المدة القصيرة باذن الله وهو الروح ، وأن للروح ظهورات غريبة في بعض الهيا كل ، وانه توجد أرواح من شأنها الاجتنان عن الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر ، صنف منها يحب جذبه الى سبل التكمل ، وصنف منها يحب بقاءه في

حضيض البهيمية ، يقال في العربية للاول ملائكة وللثاني شياطين

كان مصدقا بكل هذا ومؤمنا أيضا بأن بعض الارواح الذين هم الملائكة يخصهم الفاطر المصور بمزيد خصائص ويجعلهم نواميس أي وسطاء الوحي الأعلى للذين يريد سبحانه أن تكون ظهورات الروح فيهم سامية جدا

كان قد قرأ الانبياء وعرف مجيء الارواح اليهم وعرف أنه يقوم أنبياء كذبة وأنبياء صادقون وأن لهؤلاء وهؤلاء علامات. فنحن لما سمعنا ذهاب خديجة الى هذا العالم المسيحي خطر ببالنا أنه لا يكون سهلا تصديقه بقدسية الروح الذي أتى محمداً (صلى الله عليه وسلم) لان يوحنا الرسولي يقول في رسالته الاولى « أيها الاحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الارواح هل هي من الله لان أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم. بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله ، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد ليس من الله » ولكن الذي خطر ببالنا أن وقوعه صعب قد رأيناه أمراً واقعا فان ورقة بعد أن سأل بعل ابنة عمه بضع مسائل قال له هذا هو ناموس موسى أي الروح الذي جاءه . والظاهر أنه لم يقل هذا القول ولم يصدق هذا التصديق الا بعد أن عمل الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي وظهرت له الدلائم الدالة على أن هذا الروح من الله على حسب ما تعلم من الكتب

نحن لا ندعي العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا ولا طريقة الامتحان التي أشار بها ولكن نظن أن ذلك العالم القريب من ذلك العهد بالنسبة الى زماننا هذا كان لا يجهل هذا التفسير . وكذلك لا ندعي العلم بتفسير قول موسى لبني اسرائيل « ان نبيا مثلي سيقيم لكم الرب الهكم من

لغوتكم» ولا تسير الاصحاح الثاني والاربعين من «اشعياء» ولكن يظهر لنا أن ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعياء أنه سيكون نبي من العرب يكون مقامه حوالي سلع ذلك الجبل المعروف في البلاد العربية. وهذا نص ما في أشعيا:

«١ هوذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ٣ قصبة مرضوضة لا تقصف، وفتيلة خامدة لا يطفئ، الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته ٥ هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها باسط الارض ونتائجها، معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك بيدك، فأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للامم ٧ لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن الجالسين في الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي، لا أعطيه لآخر، ولا تسبيحي للمنحوتات ٩ هوذا الاوليات قد أتت، والحديثات أنا مخبر بها قبل ان تنبت أعلمكم بها ١٠ غنوا للرب اغنية جديدة، تسبيحة من اقصى الارض، أيها النازلون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها، القيدار التي يسكنها فيدارة، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ١٢ ليعطوا للرب مجدا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر»

***

قد قلت وأعيد قولي اني لا أدعي العلم بتفسير هذه الكتب ولكني لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمه هذا هو الناموس موسى جئت من هنا

قوله هذا فوجدت فيما ذكرت آنفا من قول موسى واشعيا مايشبه أن يكون مأخذا فمن أراد أن يقول لي لا يفهم من قول موسى وأشعيا ما فهمت لا يجدني آسفا على عدم إصابة ظني بخصوص ما حمل ورقة بن نوفل على قوله هذا فانه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ما ظننته . ولست في هذا المقام بذي حجاج ومناظرة اذ أنا ههنا الا كاتب سيرة أجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ما وصلت اليه من النقول

وههنا مسألة جليلة لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ونسهل فهمها على القارئ وهي ان الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها اذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو واسطة غيرها

هذا الذي كان بنو اسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب اليه وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبئهم بما سيكون . وتبتدئ هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبئ فأنبأ بانه سيكون طوفان ويموت كل من على وجه الارض وهدي الى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونساؤهم وتناسلوا بعد الطوفان ثم تفرقوا ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم (*) وكان ينزل عليه روحا من عنده ، وشاخ ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلت منه أخيرا هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح وقال لها سيكثر نسلك فلا يعد من الكثرة فولدت له اسماعيل ثم انبئ أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة

(*) ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح (كذا في التكوين)

وطول هذا العقم فولدت له اسحاق وانبئ ان نسل اسحاق سيكون كثيرا أيضا . وغضبت سارة على هاجر فطردتها وغلامها فنزل على هاجر الروح وقال لها لا تخافي لان الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله أمة عظيمة وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية برية فاران التي قال عنها موسى ان الله سبحانه تلألأ فيها

وتأخذ كتب بني اسرائيل بعد ذلك بسرد أخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم وأما أخبار من تناسل من أخيه اسماعيل فلا تذكرها فابن اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يجيء اليه

ويوسف هو سبب مجيء بيت يعقوب الى مصر وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشهيرة . هذا أيضا كان ينبأ وينزل عليه الروح وهذا قال لقومه « ان نبيا مثلي سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم »

واسس موسى لبني اسرائيل ملكا على الوحي الروحي وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسليمان وتعاظم الملك في أيام سليمان ثم طرأت عليه بعده الطوارئ حتى زال . ولم يخل زمان من أزمنة ملوكهم وبعدها من نبي أو عدة أنبياء حتى نزل الروح أخيرا على مريم أم عيسى وبشرها بانه يكون لها ولد من غير أن يمسها بشر . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التي بشرت بها وصار نبيا أيضا ولكن قومه كذبوه ولم يصدقه الا قليل . وقد كذبوا من قبله أكثر الانبياء الذين كانوا ينذرونهم بزوال الملك اذا ظلوا على الفساد

أنا لا أعرف لماذا يكذب بعض الناس بأشياء هم معتقدون بمثلها ، أو يعتقدون باشياء هم مكذبون بمثلها . هذا أمر وقع كثيرا ويقع دائما أمام أعيننا واسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص وما هو الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وما هو سبيل العقل في التصديق والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبعجائب صنع الله ، وغذت بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناموس الله لعبده موسى لا ينبغي له أن ينكر قدرة الله في اخراج عيسى من مريم بغير واسطة بعل ، ولا يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى . ومن آمن بعجائب موسى وعيسى ابني اسحاق وبنزول روح الله عليهما لا ينبغي له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بني اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجائب والغرائب الموسوية والعيسوية وأما الذين لا يصدقون بهذي وتلك ولا يحكمون الا الحس والعقل فهؤلاء أمضي بهم الى التجارب والمشاهدات وأنا واثق أنا لا نعدم في خزائنها كثيرا مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها

فان قال لي هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس هذا سبب اخبار من روح كما تقولون قلت لهم اذا توافقنا في ثبوت الاصل فلا ضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسمائها

وان قالوا لي ما الفرق بين هؤلاء الذين قد نراهم في أزمنتنا هذه من هذا القبيل وبين من تحدثونا عنهم قلت لهم ان هذا الفرق ظاهر لان الاختصاص كله من الله فهو يعلم انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية

ويجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم لاتحيط به العبارة ويعطي انسانا آخر مثالا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجعله شارعا وقائد أمم ومؤيدا بتأييد عظيم فالاول يقول أنا نبي أو أنا رسول ويظهر الله صدقه فيما يقول والثاني لا يستطيع أن يقول هذا وان قاله لا يظهر قوله حقا . فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يسدوها الاخلاص الى الله والادب مع مجالي أمره ، ومظاهر سره ! ؟

لقد كان ورقة على ماظهر لنا شديد الاخلاص متوغلا في علم الروح ومعرفة النواميس الالهية وأخبارها ، وكان على نور فراسة من ربه وسرعة استطلاع فلما سمع هذا النبأ الجديد تهرس بصاحبه وتذكر ماتقل عن الانبياء واصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بني اسحاق « سيقيم الله نبيا مثلي من اخوتكم » وما اخوتهم إلا بنو اسماعيل فقال له هذا هو الناموس الذي نزل على موسى

ثم تذكر ابناء الناس للانبياء مع قول اشعيا « لترفع البرية صوتها ، الديار التي سكنها قيدار » وقيدار هو ابن اسمعيل ، وقوله « لترنم سكان سالع » وسالع او سلع جبل على مقربة من « يثرب » من أشهر جبال العربية فلاح له أن قريشا ستضطر هذا النبي الى مفارقة بلده « مكة » فقال له « ليتني فيها جذعا — اي شابا — اذ يخرجك قومك »

وبعد برهة قليلة توفي ورقة . أما « خديجة » فاستمسكت بكلام هذا الرجل أيما استمساك وأضافت علومه الى ماقد عرفته هي بدلالة عقلها وتجربتها فأصبح ايمانها بنبوة بعلها ورسالته الى الناس اثبت من الرواسي